٢ – قايين

رجال الكتاب المقدس

بقلم

القس الياس مقار

١٩٥٦

obeikandl.com

٣

قايين

« وان لم تحسن فعند الباب خطية رابضة »
(تك ٤ : ٧)

ان مأساة قايين الكبرى ان كلمة « خطية » وردت لأول مرة فى الكتاب المقدس فى سياق الحديث عن قصته المفجعة الدامية !! وفى الواقع ان كلمة « خطية » وكلمة « قايين » كلمتان متقابلتان متلازمتان حتى ليسهل أن نضع إحداهما موضع الأخرى ونحن فى أمن من الزلل والخطأ والتجنى !! أليس قايين هو أول بشرى يمكنه أن يقول : « ها أنذا بالإثم صورت وبالخطية حبلت بى أمى » بل أليس قايين هو الأحرى بالقول : « وأما أنا فجسدى مبيع تحت الخطية .. فانى أعلم انه ليس ساكن فىَّ أى فى جسدى شىء صالح لأن الارادة حاضرة عندى وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد .. ويحى أنا الانسان الشقى من ينقذنى من جسد هذا الموت » .. ولئن كان داود و بولس قد وجدا من ينقذهما من جسد هذا المَوْت ، ومن الخطية الموروثة والفعلية ، فان قايين لم يجد الى الخلاص سبيلاً ، لأنه رفضه ، عندما عرض عليه ، بغباوة وعناد وحماقة وشر !!

فى اجتماع دينى وقف ثلاثة : طبيب ، ومحام ، ومهندس ، ليتحدث كل منهم ، ويضع تعريفاً للخطية ، مستمداً من طبيعة مهنته وعمله ، فقال الطبيب :

« ان الخطية مرض » وقال المحامى : « انها التعدى » وقال المهندس : « انها الهدم والتدمير » . وقد كانت الخطية عند قايين هى الثلاثة معاً ، إذ كانت المرض، والتعدى ، والهدم والتدمير، بل واكثر من ذلك ، إذ لاحقته بأقسى جزاء يلحق بانسان فى هذه الأرض،ألا وهو العذاب والطرد والتشريد وعدم الاستقرار حيثما اتجه وأنّى سار . . واذا كان العالِم الانجليزى هكسلى قد دحض نظرية التطور النفسى ، ووصف الانسان الخاطىء بالقول : « لا أعلم ان هناك دراسة انتهت الى نتيجة محزنة للنفس كدراسة تطور الانسانية ، فمن وراء ظلام التاريخ الى اليوم، بيّن الانسان انه خاضع لعنصر وضيع فيه، مسيطر عليه بقوة هائلة !! انه وحش ولكنه وحش أذكى فقط من الوحوش الأخرى ، انه فريسة واهنة عمياء للدوافع تقوده الى الخراب ، وضحية لأوهام لانهائية ، جعلت كيانه العقلى همّاً وحملاً ، وأضنت جسده بالهموم والمتاعب والصراع ، لقد بلغ شيئاً من الراحة ، وانتهى الى نظام عملى فى الحياة على ضفاف النيل أو ما بين النهرين ، ولكنه هو هو لآلاف السنين ما يزال يصارع بحظوظ مختلفة ، مصغياً الى دوافع لانهائية من الشر والدم والبؤس ليشق طريقه بنفسه بين جشع الآخرين وطمعهم !! لقد قاتل واضطهد الذين حاولوا دفعه وتحريكه عما هو عليه ، ولكنه لما تحرك خطوة عاد باكياً ضحاياه بانياً قبورهم » . . اذا كان هذا العالِم قد وصف الانسان الخاطىء بهذه الصورة، فانه أعطانا ، وهو لا يدرى، صورة دقيقة رهيبة لأول قاتل وسافك دم على هذه الأرض !!

دعونا اذاً نتأمل للعظة والعبرة شخصية قايين من هو وماطباعه وأخلاقه؟؟

وما الخطايا المميتة التى ارتكبها؟؟ والعقاب المريع الذى أصابه نتيجة خطاياه؟؟

قايين صنعه هو وصنا طباعه وأخلاقه !!؟

لا يحتاج المرء الى كبير عناء ، وهو يتأمل قصة قايين كما وردت فى سفر التكوين ـ مضافاً اليها ثلاث عبارات أخرى قصيرة حاسمة وردت فى العهد الجديد فى الرسالة الى العبرانيين، ورسالة يوحنا الأولى، ورسالة يهوذا ـ فى أن يدرك أن الخطية صنعت من هذا الانسان مخلوقاً بشعاً مريعاً، يقف على رأس المجرمين العتاة فى كل التاريخ ، ولعل الرسول يوحنا لم يجد لهذا السبب ، وصفاً يصف به قايين أدق من القول : « كان قايين من الشرير » أى انه كان من الشيطان، كما أن الفرع جزء من الأصل ، وكما أن الغصن جزء من الشجرة ، وكما أن الماء العكر جزء من الينبوع الموحل ! ! فهو ابن الشيطان وتابعه وربيبه، ومن ثم فكل صفاته وأخلاقه وطبائعه آثمة شريرة شيطانية، واذا كان من المتعذر الاحاطة بها جميعاً ، فى هذا المقام ، فليس أقل من أن نشير فى كلمات الى أهمها وأظهرها ، ولعلها :

الضراوة والوحشية

يعتقد بعض الشرّاح أن قايين كان ، من الناحية البدنية ، أقوى وأصح من أخيه هابيل ، ويرجع هذا فى نظرهم لا لأنه استطاع أن يقضى على أخيه ويقتله فحسب، بل لأن حواء إذ لاحظت ضعف هابيل الجسدى، من مولده، اذا قورن بأخيه ، أطلقت عليه الاسم « هابيل » الذى يعنى « الضعف » أو « البطل » بينما يرجح آخرون أن حواء أطلقت هذا الاسم على ابنها الثانى

تعبيراً عن ألمها ويأسها ومرارتها وخيبة أملها من الحياة كلها ، ومن ابنها قايين ، الذى بدا على غير ما كانت تحلم وتتمنى ؟ وسواء صح هذا الرأى أو ذاك ، فمما لا شك فيه أن قايين يقف على رأس تلك السلسلة الطويلة من الأبناء الذين ولدوا حسب الجسد ، بينما يقف هابيل على رأس الصف المقابل من أبناء الموعد والروح !! وكما كان أبناء الجسد يبدون على الدوام فى عنف وضراوة ووحشية،فى مواجهة أبناء الروح، كما بدا اسمعيل فى مواجهة اسحق، وعيسو فى مواجهة يعقوب، هكذا نرى من اللحظة الأولى فى التاريخ البشرى كيف يبدو قايين أولهم وأبوهم فى ضراوته ووحشيته وعنفه أزاء أخيه الطيب الوادع الآمن هابيل !!

الكبرياء وازدراء الذات

وما من شك بأن قايين كان متكبراً ، صلفاً ، شديد الاعتداء بالنفس ، والذات، ويبدو هذا بوضوح من الطريقة التى تخيرها، وهو يقدم تقدمته لله، إذ أنه لم يقدم التقدمة التى أمر بها الله ، بل قدم التقدمة التى ظن هو انها أفضل وأعظم بحسب تفكيره وعقله ، بل أن سقوط وجهه بعد التقدمة يدل الى حد كبير على أنه كان فى الأصل ذا طبيعة متعالية شامخة !!

والكبرياء من أشر الرذائل التى تصيب الانسان،وهى دليل بالغ قوى على الحماقة والغباوة والجهل!! إذ ليس فى أى بشرى ما يدعوه الى التسامى والتعالى والتشامخ ، إذ يكفى أن ندرك مركزنا أزاء الله والكون والأبدية والحياة والواجب حتى نتضع ونصغر ونتلاشى ! ! كان الذهبى الفم يقول : ان أساس

فلسفتنا التواضع، وكان كلفن يقول : لو أنك سألتنى عن النعمة الأولى والثانية والثالثة التى ينبغى أن تتحلى بها فى الحياة المسيحية ، لأجبتك انها أولاً وثانياً وثالثاً ، والى الأبد . . التواضع . . كان جورج واشنطون كرافر من العلماء المبرزين ، وقد سأل الله ذات يوم قائلاً : يا رب ما هو الكون ! ! ؟ فأجابه الله:يا جورج ان الكون أوسع واكبر من أن تدركه أنت !! ولعلك تطالبنى فيما بعد بالاهتمام به!!؟ و إذ أحس العالم المتواضع مركزه من الله والحقيقة سأل إلهه : يا رب ما هو الفول السودانى !!؟ فأجابه الله : الآن تسأل سؤالاً يتناسب مع حجمك !!؟ اذهب وسأعينك على فهمه !! وقضى جورج المتواضع بقية حياته يجرى بمعونة الله تجارب العديدة على هذا النبات حتى انتهى الى نتائج مذهلة عجيبة ! !

الحسد

والحسد هو الرذيلة النكراء التى تملكت قايين وأسقطت وجهه،عندما رفض الله تقدمته ، وقبل تقدمة أخيه ، وهو الرذيلة الوحيدة التى يقول عنها الكسندر هوايت انها تولد وتنمو وتثمر فى الحال ، إذ يكفى أن ترى غيرك يفضّل عليك ، حتى تشعر فى التو واللحظة أن نيران الجحيم بأكملها قد استعرت فيك!!؟ ومن القديسين من نجح فى مكافحة كثير من الرذائل ولكنه سقط فى رذيلة الحسد !! ولقد قيل أن الشياطين عجزت ذات مرة عن إسقاط أحد الرهبان ! ! مع انهم جربوه بأنواع مختلفة من التجارب ، و إذ اشتكوه الى رئيسهم قال : دعوه لى ، ثم ذهب اليه وقال له : هل علمت أن زميلك

اختير أسقفاً على الاسكندرية ، وكان هذا كافياً لإسقاطه !! . . ما أحوجنا جميعاً الى روح وصلاة توماس شبرد مؤسس جامعة هارفورد ، ذلك الرجل الذى جرّب ذات مرة بأن يحسد زميلاً شاباً من الخدام،لأن مواعظه أخذت المكان الأول على صفحات الصحف، بينما أخذت مواعظه هو مكاناً منزوياً خفياً ، وذات يوم ظهرت عظة للشاب قرأها الجميع ، وكانت موضع الحديث والتقدير والإعجاب ! ! وما أن سمع شبرد الناس يتحدثون عنها حتى استعرت نيران ملتهبة فى أعماق نفسه ، فدخل الى مكتبه ، وهناك اجتاز فى تلك الليلة جثسيمانى، وفى منتصف الليل انبطح على وجهه فى أرض الغرفة، وهو يصارع بعرق ودموع العاطفة البغيضة التى استولت عليه ، وقبيل الفجر ، كان قد انتصر تماماً، إذ أخذ يصلى بنفس هادئة، ومحبة عميقة، ليبارك الله أخاه وزميله الواعظ ، لكى ينجح و يتقدم اكثر فأكثر . . وكانت هذه بمثابة نقطة التحول فى حياة الواعظ البيورتانى العظيم !! .. وسمع التاريخ عنه ، أما زميله الواعظ فلا نكاد نعرف حتى مجرد اسمه !!

الأنانية وحب الذات

وهل هناك من شك فى أن قايين كان أنانياً، بل كان غارقاً فى الأنانية وحب الذات ؟!؟ ألم يرَ الدنيا وكأنما هى أضيق من أن تتسع له ولأخيه،وكأنما لا تستطيع أن تحتملهما معاً متعاونين متحابين متساندين!!؟بل ألا تبدو هذه الأنانية فى قوله لله : « أحارس أنا لأخى » وهى عبارة ان دلت على شىء ، فانما تدل على الأثرة والذاتية وعدم الاهتمام بالآخرين !!؟ ومن له فى الدنيا

أفضل من هابيل، ومن رعايته وحراسته والحدب عليه!!؟ ولكنها هى الأنانية التى لا تفكر فى الواجب، بل ترى فيه، وفى الاهتمام بالغير، ثقلاً وعبئاً ونكراً، حتى ولو كان هذا الغير هو أعز وأقرب الناس الينا، أو فى لغة أخرى، هو أخونا ابن أمنا وأبينا !!..لم يقل قابين قولة لويس الخامس عشر المنكرة: أنا و بعدى الطوفان! لأن الطوفان لم يكن قد جاء بعد ليغرق الدنيا بأكملها، ولكنه أثبت بما قال وفعل انه أبو لويس وأبو الأنانيين جميعاً على اختلاف أجناسهم وألوانهم فى كل العصور والحقب والاجيال !! هناك صورة مشهورة لمصور بريطانى عنوانها: « أحارس أنا لأخى » وهى عبارة عن مقعد حجرى على نهر التيمز، وقد جلس عليه ستة أو سبعة من التعساء البؤساء المشردين، ممن لم يكن لهم مكان فى المدينة، فأتوا الى ذلك المكان ليقضوا فيه ليلتهم، وتراهم فى الصورة وقد ناموا وهم جلوس على المقعد، وكان ثلاثة منهم من العمال العاطلين، ورابع من الجنود المسرحين، والى جواره امرأة تحتضن طفلها وتميل برأسها على زوجها الجالس الى جانبها، والجميع مستغرقون فى النوم، وعلى مقربة من المكان فندق عظيم، يتلألأ بأنواره الفخمة التى يسكبها هنا وهناك !! .. والمعنى الذى يقصده المصور من صورته هذه، واضح وظاهر، إذ أن هؤلاء البؤساء ليس لهم مكان بين اخوتهم من رواد الفندق الفخم القريب ! !

الخداع والمكر

والخداع والمكر من الصفات البارزة فى قابين والتى دعته الى أن يخفى فى نفسه أمر مؤامرته وغدره، ثم يدعو أخاه الى الحقل دون أن يستبين هذا

من الأمر شيئاً ، وقد قيل فى بعض التقاليد انه تحدث الى أخيه مهنئاً إياه على الذبيحة التى قبلها الله ، وقيل فى تقاليد أخرى ، انه دعا أخاه ليذهب و إياه الى الحقل للتريض والنزهة ! ! وسواء صح هذا الرأى أو ذاك أو لم يصح فمن المؤكد أن شيئاً خبيثاً شريراً كان يلمع فى عينى قايين ، وان هابيل الوادع الآمن لم يستطع تبينه ، ومن ثم ذهب ضحية ثقته بأخيه الذى لم يكن أهلاً لهذه الثقة ! !

الكذب

وكذب قايين واضح فى الجواب الذى رد به على الله عندما سأله قائلاً : « أين هابيل أخوك » إذ قال : « لا أعلم » ، وليس عجباً أن يكذب قايين ، بل العجب ألا يكذب وهو من الشرير ، أى من ذاك الذى قال عنه المسيح «متى تكلم بالكذب فانما يتكلم مما له لأنه كذاب وأبو الكذاب» يو ٨ : ٤٤ والكذب من الصفات الأصيلة فى الأشرار والشياطين ، إذ هم بطبيعتهم منحرفون عن الحق ، وكارهون له !! ومن ثم فالشىء من معدنه لا يستغرب ، وكل إناء ينضح بما فيه كما تذهب وتقول الامثال

العالمية

ونقصد بالعالمية ههنا ما ذهب اليه أوغسطينس عندما تحدث عن الفرق بين قايين وهابيل فى كتابه العظيم : مدينة الله اذ قال : « ان قايين ، مؤسس مدينة العالم ، ولد أولا ، ودعى قايين أى اقتناء ، لانه بنى مدينة ، و بذلك انصرف انصرافاً كلياً للاهتمام بأمجاد العالم وهمومه ، ولقد اضطهد ذاك الذى

اختير من العالم ، أما هابيل فهو أول سكان مدينة الله ، وقد ولد ثانياً ، وقد أطلق عليه الاسم هابيل أى البطل ، لأنه أبصر بطل العالم ، وقد خرج من العالم بموت غير عادى ، وهكذا جاء الاستشهاد على الأرض مبكراً ، ومن أسف ان الرجل الأول الذى مات من البشر مات من أجل الدين » . وان كنا لا نتفق مع أوغسطينس فى الربط بين معنى الاسم قايين والمدينة التى بناها ذلك الرجل القديم ، الا اننا نؤيده تماماً فى ان قايين خرج من لدن الرب ، ليسكن فى أرض « نود » أوأرض« البعد » حيث وضع هناك أساس المدنية المستقلة المنعزلة المتباعدة عن الله !! ولقد ضرب بنوه فى هذه المدنية بسهم وافر من الحضارة اذ كان منهم يوبال الذى كان أباً لكل ضارب بالعود والمزمار ، وتوبال قايين الضارب كل آلة من نحاس وحديد ، ولكنها — أى المدنية — مع ذلك عجزت عن أن تتحقق لهم الراحة والسعادة والبهجة والسلام ، اذ ولدت بعيدة عن الله ، وفى أحضان الشر والشهوانية والفساد والاثم !!

قايين والخطايا المميتة التى ارتكبها رغم تحذير الله

أما وقد أدركنا طبيعة قايين الشريرة فلنتحول قليلاً لنتأمل الخطايا المميتة التى ارتكبها هذا الرجل ، وتزداد هذه الخطايا بشاعة ورهبة وشناعة اذا لاحظنا ان الله لم يتركه ليقدم عليها أو يندفع فيها دون تنبيه أو تحذير !! وهذه الخطايا هى :

وهى أول خطية يبرزها ويحددها الكتاب لنا ، وتتمثل فى القربان الذى قدمه قايين الى الرب من ثمار الأرض ، على العكس من أخيه الذى قدم ذبيحته لله من أبكار غنمه ومن سمانها !! ولا أحسب ان هناك كلمات أفخم وأدق وأروع من كلمات دكتور ا . ب . سبمسون عندما وصف الاثنين بالقول : « ان الرجلين اللذين وقفا على أبواب عدن ليعبدا الله يمثلان الجنس البشرى فى انقسامه الى مؤمنين وغير مؤمنين !!. أما الرجل الأرضى فيبدو فى ديانته كما لو انه أكثر طرافة وكياسة وجمالاً ، اذ يقدم من أثمار تعبه ومن أولها وأحسنها !! أو فى لغة أخرى ، انه يقدم زهور الربيع العطرة النقية ، وثمار الصيف الناضجة الغنية ، وربما بدا مذبحه أكثر بهاء وجمالا اذا قورن بالمذبح الخشن غير المصقول الذى قدم هابيل عليه الذبيحة العاصية والتى تبدو فى صفرة الموت لحمل دامٍ محتضر ملتهب !! غير ان تقدمة قايين فى جملتها ليس إلا نكراناً تاماً شاملاً لكل ما قاله الله عن لعنته للارض وأثمارها ، وعن حقيقة الخطية والحاجة الى مخلص مكفر ، الأمر الذى أوضحه الله لآدم وحواء عندما صنع لهما أقمصة من جلد ، والذى لاشك انه أكده أكثر من مرة فى تعاليمه ووصاياه لكليهما !! ولم تكن ذبيحة هابيل سوى اعتراف وديع متضع بكل هذه ، وقبول صريح واضح لطريقة الله فى الغفران والقبول » .

والواقع ان كاتب الرسالة الى العبرانيين يتحدث بكيفية جازمة عن هذه

الحقيقة بالقول : « بالايمان قدم هابيل لله ذبيحة أفضل من قايين » . وهل يمكن أن يكون هناك ايمان ما لم يكن هناك اعلان سابق يثق به هذا الايمان ويرجوه ويعتمد عليه !!؟ أجل فهابيل لم يقدم ذبيحته لمجرد التصور أو الاستحسان البشرى بل لابد ان الله أعلن من البدء للبشر بوضوح وجلاء انه « بدون سفك دم لا تحصل مغفرة » !!

والعمل الأول للايمان هو أن نثق بما يقوله الله عن الخطية !! ولا عبرة بعد ذلك بما يمكن أن يقوله الفكر أو الشعور عنها ، فاذا خالا لبعض الفلاسفة والملحدين تجاهلها . فلن يفيد هذا التجاهل شيئاً ، وستبقى الخطية رغم ذلك أرهب حقيقة عرفها التاريخ البشرى ، واذا زعم غيرهم ان الخطية ضرورة من ضرورات الاجتماع ، فزعمهم كاذب وليس الحق فيه ، وستبقى الخطية كما قال عنها الآباء الأولون : انها ارادة الانسان الفاسدة تعاكس ارادة الله المقدسة ، أو كما قال عنها اليهود : انها العجز عن بلوغ الهدف ، أو كما قالوا عنها أيضاً : انها خضوع الانسان لرغبات الجسد التى تقاوم ارادة الله ، أو كما وصفها الكتاب فى تعبير دقيق جامع مانع بالقول : « والخطية هى التعدى » ١يو٣ : ٤ وايا كان نوع هذا التعدى ووجهته ، وسواء كان موجهاً ضد النفس ، أو ضد الآخرين ، أو ضد الله مباشرة ، فهو على أى حال التعدى الذى يستجلب غضب الله ودينونته ونقمته . ومما يصح فى القول عن الفكر يصح فى القول عن الشعور أيضاً ، اذ لا ينبغى أن نزن الخطية أو نقيسها بميزان أو مقياس الشعور ، اذ يكفى أن نؤمن بأننا خطاة لان الله قال هكذا !! وهذا ما فعله هابيل اذ أخذ مكانه كخاطىء فوجد فى الحال سبيله الى الخلاص من

خطيته !! على العكس من أخيه الذى كان الشعور هو المضلل الأكبر له ، اذ لم يشعر فى البداءة بخطيته ، أو بحاجته الى الخلاص !! وعندما شعر بالخطية فى النهاية ، كان شعوره أفدح وأثقل من اللازم ، وادعى الى اليأس والقنوط ، الأمر الذى دعاه يصرخ صرخته المرة : « ذنبى أعظم من أن يحتمل » .

على انه لا يكفى أن يثق الانسان بما يقوله الله عن الخطية ، بل ينبغى أن يثق بما يقوله أيضاً عن الخلاص ، وقد قال الله كلمته فى هذا الشأن ، فأبى قايين أن يصدقها ، وقبلها أخوه بايمان وخضوع وتسليم ، والجنس البشرى كله لا يخرج فى جميع العصور والأجيال عن واحد من اثنين اما منكر لهذه الكلمة أو مصدق لها . كيف لا والصليب هو الحقيقة الكبرى التى كانت ترمز اليها جميع الذبائح فى العهد القديم و« كلمة الصليب عند الهالكين جهالة وأما عندنا نحن المخلصين فهى قوة الله ... لأن اليهود يسألون آية واليونانيين يطلبون حكمة . ولكننا نحن نكرز بالمسيح مصلوباً لليهود عثرة ولليونانيين جهالة وأما للمدعوين يهوداً ويونانيين فبالمسيح قوة الله وحكمة الله لان جهالة الله أحكم من الناس وضعف الله أقوى من الناس » ١ كو١ : ١٨ ، ٢٢ ـ ٢٤

كان الاسكتلندى العجوز يركب عربته ذات يوم ، واذا به يسقط تحت ثقل خطاياه ، وتبادره نفسه بهذا السؤال الملح : « ماذا تقدم لله لكى يرضى عليك !؟ » وفكر فى أن يقدم دموعه وخدماته وعهوده واصلاحاته ولكن هذه جميعها لم تعطه الراحة والأمن والسلام !! واذا به يسمع صوتاً هامساً من الأعماق يقول له : قدم المسيح !! واذ قدمه امتلأت حياته كلها بالفرح والبهجة والسلام والسعادة !!

ومن الملاحظ ان الله لم يهمل فى ان ينبه قايين، بعد أن رفض تقدمته، الى انه يحسن أو لا يحسن بالقدر الذى يرفع الذبيحة أو لا يرفعها !! وهكذا تكشف لنا هذه القصة القديمة الى أى حد يهتم الله باعلان سياسته الثابتة الأبدية فى الخلاص !!

خطية قتل هابيل

وهى الخطية الثانية الرهيبة التى ارتكبها قايين ، وقد ارتكبها مع سبق الاصرار دون أن ينتفع بتحذير الله وانذاره ، وقد اتسمت هذه الخطية على الأقل بثلاث سمات ، اذ كانت أولا الخطية القريبة من الباب، ولعلنا نستطيع أن نفهم اقترابها من قايين اذا أدركنا معنى القول : « ان أحسنت أفلا رفع وان لم تحسن فعند الباب خطية رابضة» . والشراح فى ذلك يذهبون ثلاثة أو أربعة مذاهب ، فمنهم من يفسرها بهذا المعنى : ان أحسنت أفلا رفع لوجهك، وان لم تحسن فعند الباب خطية رابضة، وهؤلاء يعتقدون ان الرفع هنا مقصود به الوجه الذى سقط وامتلأ خزياً ، وعلى رأس هؤلاء يقف كايل وديلتش وجيزينيس . بينما وجد غيرهم ممن توسع فى فهمه لمضمونها فقال ان المقصود هو ان أحسنت أفلا رفع لمركزك على اعتبار انه البكر ، وعلى رأس هؤلاء يقف بش.. ووجد آخرون ممن فسروها على هذا المعنى : ان أحسنت أفلا رفع لذبيحة ، وهؤلاء يذهبون الى أن مركز قايين بجملته يتحدد على أساس الذبيحة التى يقدمها أو يرفضها ، فاذا قدمها فانه يحسن صنعاً و يسلك السبيل السوى الذى عينه الله وان لم يحسن اذ ظل على كبريائه وعناده ورفضه فهناك سوء

وخطر ينتظرانه عند الباب ولعل لوثر وكلفن فى مقدمة الآخذين بهذا الرأى وان كان لوثر يذهب الى أن المقصود بالرفع هو رفع حمل الخطية نتيجة الذبيحة بينما يتجه كلفن الى أن المقصود بالرفع هو القبول الالهى للذبيحة والمعنيان على أى حال مقتربان ومتفاعلان !! على ان هناك مذهباً آخر طريفاً يقول ان قايين حمل تقدمته المرفوضة التى لم ينظر اليها الرب والقى بها عندالباب وكان يراها فى دخوله وخروجه فتشتعل نفسه غضباً وغيظاً ورأى الله ان تجربته هنالك فطلب اليه أن يرفعها بالقول: ان أحسنت أفلا رفع للتجربة — حتى لاتتحول الى وحش كاسر يوشك أن ينقض عليك !! وسواء صح هذا الرأى أو ذاك أو غيره ، فمن الواضح ان التجربة كانت قريبة جداً من قايين، وانها تربض على بابه ، فاذا لم يفزع منها و يهرب ، فانها لا تلبث أن تنقض عليه وتفتك به لان: « كل واحد يجرب اذا انجذب وانخدع من شهوته ثم الشهوة اذا حبلت تلد خطية والخطية اذا كملت تنتج موتاً » يع ١ : ١٤ و١٥ . ان الخطية تبدأ أولا بخيوط أوهى وأدق من خيوط العنكبوت تلف بالخاطىء ، ثم لا تلبث أن تتحول هذه الخيوط الى قيود وأغلال دونها القيود والاغلال الفولاذية !! سار فاوست فى طريقه مع الشيطان وقد اتفقا على انه اذا نجح الشيطان فى اشباع رغبات فاوست يضحى له عبداً ، اما اذا لم يشبعها فان له الحق أن يتحلل من سيطرته وسيادته ، وقبل الشيطان ذلك ، وأخذ ينتقل بفاوست من شر الى شر ، ومن متعة الى متعة ، وفى كل مرة يسأله : هل شبع !؟ واذا بالجواب يأتيه على الدوام كلا ، واستنفد الشيطان كل المتع والشهوات والشرور وأعلن ذلك لفاوست !! فقال له هذا : اذاً فأنا حر !! وأجابه الشيطان : أنت حر ،

وحاول فاوست أن يرجع ، ولكنه أدرك ان الخطية قيدته وهو لا يدرى بقيود من حديد !!. والسمة الثانية فى الخطية التى ارتكبها قايين وحشيتها وقسوتها اذ انها : « رابضة عند الباب » والمعنى فى الأصل يشير الى أن الخطية وحش كاسر يجسم على مقربة من قايين ، ويوشك أن يمزقه تمزيقاً ، وفى الواقع ان الخطية التى ارتكبها قايين كانت بالغة الفظاعة والوحشية!! كيف لا والصريع أخوه ابن أمه وأبيه ، أخوه الحلو البرىء الوادع الامن !!؟ أخوه الذى كانت تحلو معه العشرة ، وكان يتقاسم واياه الحياة فى ألوانها المتعددة المختلفة !! تخيل أحد الكتاب هابيل وكأنما يصيح فى اللحظة الأخيرة لأخيه الغادر المتوحش: أى أخى ابن أمى وأبى ماذا ستفعل !!؟ انك اذ تقتلنى ستقتل أبهج ذكريات الحياة عندما كنا نسير هنا وهناك على مقربة من عدن ، نلعب ونتحادث ونكافح ونضحك !! بل انك اذ تقتلنى ستقتل أثمن ما فينا على الأرض اذ ستقتل الثقة والصدق والمحبة والشرف والايثار والاخوة !! ويحك يا أخى لا تفعل هكذا !! ولكن قايين فعل خطيته الشنعاء على أقسى وأرهب وأحط مايمكن ان يكون الفعل الشنيع . والسمة الثالثة والأخيرة فى هذه الخطية: انه كان من الممكن لقايين أن ينتصر عليها لو أراد ،اذ لوّح له الله بهذا فى القول: « وأنت تسود عليها » أجل فلئن كانت الخطية مقتربة دانية من قايين ، ولئن كانت اكثر من ذلك ، تتوق وتشتاق الى الوثوب عليه ، الا ان قايين كان يمكنه أن يتغلب عليها ، لو انه اتجه الى الله وتمشى وراء ارادته الصالحة !! والله على استعداد أن يساعد كل انسان مجرب ، بل على استعداد أن يهيىء له من الأوضاع والظروف والمساعدات ما يمكنه من التغلب على تجاربه ، مهما تبد

هذه التجارب مخيفة رهيبة قاسية !! وإذا كانت الطبيعة كلها ، كما يقولون ، تقف بكل قواتها الى جوار الانسان الذى يريد أن يعيش مستقيما !! فان الله على استعداد أن يقف بكل سلطانه وقوته الى جانب الانسان المجرب الذى يطلبه !!

خطيئة عدم التوبة

وهى الخطية الثالثة التى يذكرها الكتاب لقايين ، ويبدو ان كل خطية ارتكبها كانت تمهد وتعد للخطية التى تأتى بعدها !! فخطية عدم الايمان بالذبيحة ورفضها ، مهدت وأعدت لخطية قتل هابيل ، وخطية القتل هذه انتهت به الى الخطية الثالثة : ونعنى بها خطية الاصرار وعدم التوبة !! قال له الله بعد أن ارتكب جريمته : « أين هابيل أخوك » ولم يكن يقصد الله من قوله هذا أن يريه قايين أين يوجد هابيل أخوه !؟ فالله يعلم أين يثوى هابيل ويضطجع! ولكن الله قصد أن يثير قايين ويدعوه الى الاعتراف والتوبة !؟ ومن الملاحظ ان الله لم يقل له أين هابيل وحسب بل قال له أين هابيل أخوك ، ولعله قصد بذلك أن ينبهه الى عظم الجرم الذى ارتكبه ضد أخيه!! ان القتل فى حد ذاته ، بشع رهيب ، ولكنه أبشع وأرهب اذا أرتكب ضد الأخ المحب العزيز... ولعل هذا القول يعزز الى حد كبير ذلك التقليد القديم الذى يقول ان قايين بعد أن قتل أخاه حار فى أين يخفى جثته !! واذا به يرى غرابين يتقاتلان ، ويقتل أحدهما الآخر ، واذا بالغراب القاتل يحفر بمنقاره وقدميه حفرة يدفن فيها الاخر ، واذ رأى قايين هذا المنظر قال : الآن علمت ماذا افعل

بهابيل ثم حفر حفرة ووضعه فيها ، ووراه تحت التراب !! وعلى أى حال لقد حاول قايين أن يتخلص من الخطية بالاصرار عليها ودفنها !! ولكن هل يستطيع حقاً أن يدفن الخطية ويغطيها بعيداً عن عينى الله !!؟ كلا والف كلا !! وما عمله إلا الحماقة الكبرى التى كان عليه أن يتحاشاها بالاعتراف الصريح !! كان من الممكن أن يأتى الى الله ويقول : أنا أعلم أين أخى !! لقد قتلته بحماقتى وشرى ، وليس لى من عذر أتقدم به اليك سوى أن ألوذ برحمتك التى وسعت كل شىء وتتسع للمجرم والخاطىء والأحمق والشرير : « ارحمنى ياالله حسب رحمتك حسب كثرة رأفتك أمح معاصى اغسلنى كثيراً من اثمى ومن خطيتى طهرنى لانى عارف بمعاصى وخطيتى أمامى دائماً اليك وحدك أخطأت والشر قدام عينيك صنعت لكى تتبرر فى أقوالك وتزكو فى قضائك » ولو قال قايين هذا أو شيئاً من مثل هذا لغفر له الله خطيته الشنيعة.. كان أحد ملوك فرنسا يسير فى رفقة ملك أجنبى فى سجون طولون، وقال الملك الفرنسى للملك الضيف انه مستعد أن يفرج فى الحال عن أى سجين يقع اختياره عليه ، وأخذ الملك الضيف يسأل المسجونين واحداً بعد الاخر عن السبب الذى من أجله جاءوا الى السجن ، واذا بهم جميعاً يدّعون انهم دخلوا السجن ظلماً وعدواناً ، إلا واحد لاحت عليه الذلة والانكسار ، واذ سأله الملك عن سبب دخوله السجن أجاب : لقد ارتكبت اثماً كبيراً ، ولا أعلم لماذا خففوا الحكم على هكذا مع اني كنت استحق حكماً أقسى وأشد ! وعندئذاك وقع اختيار الملك عليه ، وقال : أنت هو الشخص الوحيد الذى أجد فيه شيئاً يحتاج الى الغفران على العكس من جميع هؤلاء الأبرياء

المظلومين ! .. أجل لانه « ان قلنا انه ليس لنا خطية نضل أنفسنا وليس الحق فينا . ان اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل اثم . ان قلنا اننا لم نخطىء نجعله كاذباً وكلمته ليست فينا » .

قايين والعقاب المريع الذى أصابه نتيجة خطاياه

بعد أن تحدثنا عن قايين وطبيعته الشريرة، والخطايا المميتة التى ارتكبها، يجدر بنا أن ننتهى بالحديث عن العقاب المريع الذى أصابه نتيجة خطاياه، وهذا العقاب ان تحدَّث عن شىء، فانما يتحدث قبل كل شىء عن عدالة الله الساهرة الحية التى لا تموت ، وقد بدت هذه العدالة فى قصة قايين فى اكثر من مظهر إذ كانت أولا العدالة الكاشفة، أو العدالة التى لا يمكن أن يخفى عليها شىء، أو تبهم لديها الامور ، بل هى العدالة التى تزن الظاهر والخفى بميزان دقيق ، وهى أيضاً العدالة الساهرة التى لا تغفل أو تنام ، بل ترقب وتلاحظ كل ما يجرى على الارض، وترى من حقها التدخل بين الانسان وأخيه، إذ أن حقها فى الواقع أسبق على كل حق، بل أساس كل حق ، ومصدر كل حق .. وقد يتصور قايين أنه ليس لأحد حق محاسبته أو محاكمته على ما فعل ، ولكنه سرعان ما يتبين أنه واهم، وان ديّان كل الارض، قد وقفه أمام كرسيه ليعطى حساباً عما فعل ضد أخيه . . وهى الى جانب ذلك العدالة الطيبة التى تفزع لموت هابيل ، وتستمع الى صرخات دمه المرتفعة من الارض ، لتقتص له من قاتله، محققة ما قاله المرنم : « عزيز فى عينى الرب موت أتقيائه » .. وعلى أى

حال فان عقاب قايين كان عقاباً شاملاً تناوله من كل جانب من جوانب الحياة ، وقد ظهر بوضوح على الاقل فى أربعة مظاهر :

الفشل الروحي

وقصة قايين بجملتها ليست إلا قصة الفشل الروحى العميق ، على أوسع ما تشمل عليه كلمة الفشل من معنى ، لقد دعته أمه قايين أى « اقتناء » إذ قالت : « اقتنيت رجلاً من عند الرب » والرأى الراجح انها دعته بهذا الاسم وهى تعتقد أنه النسل الموعود الذى سيسحق رأس الحية ،والذى سيثأر لها من عدوها المكروه البغيض ، الذى أخرجها وزوجها ونسلها من جنة عدن بالتجربة والكذب والخداع ،ولعل كلمات الكسندر هوايت هى خير ما يمكن أن يقال هنا على وجه الاطلاق !! قال هوايت : « لقد أخطأت حواء فى فهمها لقايين إذ ظنته يسوع المسيح ! ! وعندما رأته يوم مولده لم تعد تذكر حزنها ، إذ كانت المرأة المبتهجة السعيدة !!..بل ان جنة عدن بكل ما فيها من أزهار وثمار لم تعد تصبح بعد موضع الاهتمام أو التفكير من اليوم الذى تدانت فيه السماء من الأرض ، واقتنت حواء ابنها البكر من عند الرب ! ! وليس عجباً أن تخطىء حواء فى فهم قايين إذ يكفى أن تضع نفسك موضعها !! لقد جلبت هذه المرأة على نفسها وعلى زوجها الطرد إذ أصغت لأبى الكذاب !! ولكن الله جاءها فى محنتها و يأسها ، وفتح لها كتاب وعوده بأفضل وعده إذ وعدها بأن نسل المرأة سيسحق رأس الحية ، و بذلك يفتديها من كل الشر الذى جلبته على نفسها ، وعلى زوجها .. والآن تبارك الرب ، فها هوذا نسلها بين

بنيها، وها هو يأتيها فى صورة حلوة مبهجة للقلب، سماوية، فى صورة رجل من عند الرب ! ! فهل تكون حواء بعد ذلك جاحدة القلب ملحدة المشاعر وهى تنظر الى ابنها على اعتبار أنه النسل الموعود !!؟ وهل تكون مخطئة إذا قالت هذا هو إلهنا الذى انتظرناه ، الإله الذى جاء لنا برجل من عنده !!؟ ومع كل هذا فنحن نعلم أن قايين لم يكن المسيح !! وان ملاك البشارة الواقف فى حضرة الله عبر عن حواء وسارة وراحيل وحنة واليصابات وسائر النساء الأخريات فى اسرائيل ، وجاء الى عذراء مخطوبة لرجل اسمه يوسف، وقال لها : « سلام لك أيتها المنعم عليها ، الرب معك ، مباركة أنت فى النساء » « فقالت مريم تعظم نفسى الرب » .. أجل لم يكن قايين هو النسل الموعود، أو على الاقل . الأمل الباسم، والأغنية الطروب، واللحن الشادى، فى أرض متعبة!! بل كان الانسان الذى تمثلت فيه المأساة والفشل وخيبة الأمل ، على أوسع صورها وأرهب معانيها ! ! لقد كان عند أبويه فى بدء حياته حلماً جميلاً ، ولكن سرعان ما تحول الى كابوس مريع ليس لأبويه فحسب بل لنفسه وأخيه وجميع المتصلين به أو الآتين من نسله ! ! أجل فليس هناك من شىء يبدد الأحلام ، ويضيّع الأمل كما تفعل الخطية !!

العوز المادى

لم نعلم كم عاش قايين من السنين ، وكم طال به العمر ، لكننا مع ذلك نعلم أنه عاش طوال حياته فى عوز مادى ، وفى احتياج دائم ، اذ لعنه الله بضيق ذات اليد ، فى القول : « فالآن ملعون أنت من الارض التى فتحت

فاها لتقبل دم أخيك . متى عملت الارض لا تعود تعطيك قوتها » أو فى لغة أخرى ، أنه وجد الشوك فى موضع الزهور ، ووجد الحسك فى موضع البقول ، ووجدت اللعنة الدائمة تصاحب ما يزرع و يستنبت ، اللعنة التى ذكرها الكتاب عن جماعة تمشت فى طريقه عندما قال : « زرعتم كثيراً ودخلتم قليلا . تأكلون وليس الى الشبع . تشربون ولا تروون . تكتسون ولا تدفأون . والآخذ أجرة يأخذ أجرة لكيس منقوب . . . انتظرتم كثيراً و إذا هو قليل ولما أدخلتموه نفخت عليه . . . لذلك منعت السموات من فوقكم الندى ومنعت الارض غلتها ودعوت بالحر على الارض وعلى الجبال وعلى الحنطة وعلى المسطار وعلى الزيت وعلى ما تنبته الارض وعلى الناس وعلى البهائم وعلى كل أتعاب اليدين » أجل فلقد لحقت اللعنة قايين فى كل هذه ، فكان فى عداء دائم مع المحصول الوفير ، واللقمة الهانئة ، والعيش الرغيد ، والحظ الحسن — ان جاز أن نستعمل هذا التعبير — وهكذا أدرك أن الخير المادى كالروحى سواء يرجع الى أمر الله ومشيئته وارادته دون أن يرجع فى قليل أو كثير الى حكمة الانسان أو يقظته أو تعبه أو مجهوده أو عمله أو ما أشبه مما يظن الناس أنها تحدد المعايش والارزاق على هذه الارض !!

التعب الجسدى

لم تكن لعنة قايين فى ذلك العوز المادى الذى سيصاحبه طوال الحياة فحسب بل كانت فى التعب الدائم الذى يحرم عليه الاستقرار فى بقعة واحدة من الارض ، لقد كان عليه أن ينتقل من مكان الى مكان سعياً وراء الرزق

بما يصاحب هذا الانتقال من تعب وضيق ومشقة ، لقد عاقبه الله بالقول : « تائهاً وهارباً تكون فى الارض » والكلمة العبرانية المترجمة « تائهاً » تشير فى الاصل الى حالة التردد والاضطراب والتيه التى تصاحب الانسان الحائر الذى لا يعرف أين يتجه ، أو المعى الذى يسقط من الجوع ، فاذا اضيفت اليها حالة الهروب أو الحالة التى تنشأ من الفزع والخوف وعدم الاطمئنان ، ادركنا الى حد أى حد كان قايين أشبه بالرّحالة المكدود الذى يسعى فى البيداء المقفرة أو الجوّاب التعب الذى يقطع الفيافى من غير هدف !! وهكذا يؤكد الكتاب لنا أن الله لا يمنح أو يمنع اللقمة الهانئة فحسب بل يمنح أو يمنع السكن المريح أو الوسادة اللينة ! !

العذاب النفسى

وهو العذاب الذى سجله قايين فى القول : « ذنبى أعظم من أن يحتمل أنك قد طردتنى اليوم عن وجه الارض ومن وجهك اختفى واكون تائهاً وهارباً فى الارض فيكون كل من وجدنى يقتلنى » والشراح مجمعون على أن هذه اللغة ليست بحال ما لغة الاعتراف والتوبة ، بل هى لغة اليأس والقنوط لمجرم هاله الحكم القاسى الذى صدر ضده ، ومما يشجع على هذا الاعتقاد أن الكلمة « ذنبى » يمكن أن تترجم « عقابى » ، والواقع أن قايين كان مأخوذاً بالعقاب اكثر من احساسه بالجرم ! ! وكان مدفوعاً بالخوف ، اكثر من اندفاعه بالتوبة ، ولعل هذا يبرز بوضوح فى القول : « كل من وجدنى

يقتلني » واين يوجد هذا القاتل والأرض لم تعمر بعد ! ! ؟ أهو الخوف من الوحوش كما يزعم بعض المفسرين ممن يقولون أن الكلمة « من » يمكن ترجمتها « ما » و بذلك ينصرف المعنى الى وحوش الفلاة والبرية !! ؟ أو هو الخوف من المستقبل حين تأتى ذرارى أخرى من آدم تثأر منه للمقتول ، كما يذهب آخرون !!؟ أو هو خوف قايين من أن يفعل ابناؤه به كما فعل هو بأخيه . كما يذهب غيرهم ! ! ؟ لا ندرى وكل ما ندريه أن صيحته هنا على أى حال ليست إلا صيحة الضمير المضطرب المرتاع المعذب فى حضرة الله !! ولقد سجل الشاعر الفرنسى فيكتور هوجو قصة هذا الضمير فى قصيدة رائعة، يرينا فيها قايين الرحالة المتعب ، وهو يفزع من نجوم الليل ، وهمهمة الرياح وخشخشة الاوراق ، وصوت العصافير ، ويتوهم أنها ضوارى كواسر توشك أن تنقض عليه ، وتفتك به ! ! بل يرينا إياه صريع الارق والضيق والوسوسة والمخاوف ! أجل فليس هناك أرهب من صوت الضمير اذ تيقظ ، وأقسى من عذاباته اذا حاسب ودان ! ! والفنان المشهور فيرناند كومون يرينا قايين فى اخريات حياته ، وحوله من تبقى من نسله ، وما يزال هو الانسان المتعب التائه الزائغ البصر الذى يندفع فى طريقه دون أن يلوى على شىء أو يستقر على قرار اذ هو اشبه الكل باليهودى التائه الذى حقت عليه لعنة الله بعد أن صلب المسيح ! !

على أننا لا يمكن ان ننتهى من الحديث عن قايين دون أن نذكر تلك العلامة التى أعطاها له الله لكى لا يقتله كل من وجده ، ونحن لا نعلم ما

هى!!؟ أهى تحول غريب فى وجهه كما تزعم بعض التقاليد اليهودية!!؟ أم تغير تام فى لون جلده ! ! ؟ أم هى نوع من الملابس كان عليه أن يرتديه ! ! ؟ أم شىء يشبه القرن نبت فى رأسه ! ! ؟ أم علامة على جبينه ! ! ؟ أم غير ذلك من العلامات ! ! ؟ لا نعلم ، ومن العسير على أحد أن يجزم بنوع هذه العلامة وهيئتها ! ! ؟ ولكنها ان تحدثت وأكدت شيئاً فانها تتحدث وتؤكد أن الله لا يحاكم الى الابد ولا يحقد الى الدهر ، وانه فى وسط الغضب يذكر الرحمة ، وانه حتى قايين الآثم الشرير الذى لم يرحم أخاه يمكن أن يجد رحمة عند الله .

ليت ايمان قايين كان قد اتسع لرحمة اشمـــل واعم عند الله ، ولم يخف فقط من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها بل خاف بالحرى من الذى يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما فى جهنم . اذاً لشملته رحمة الله ، ولالتقى هو واخوه فى السماء فى ظلال ذاك الذى هو وسيط عهد جديد ، ودمه ، الذى هو دم رش يتكلم أفضل من هابيل .